مفاتن العلم والتفقه

حمزة بن فايع الفتحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أكرمنا بطاعته ، وامتن علينا بفضله ورحمته، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وصلى الله وسلم على محمد ، علمه ربه ، فأكرمه ونعمه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـــــد :

فإنَّ الحياة الدنيا ، وقد طبعت على كدر وبلاء ، تبدو ظرفاً لكثير من الفتن والرزايا التي تغشى بني آدم، مؤمنهم وكافرهم، كبيرهم وصغيرهم ، سيدهم ومسودهم !

والصفوة المؤمنون ، ليسوا عن ذلك ببعداء ، بل إن الفتن لتتعاظم ، والمخاطر تتكاثر لدى طبقة من أهل الإيمان ، وهم حراس الشريعة ، وفقهاء الملة ورجالات العلم والقضاء والفتيا، وهم من هم في مكانتهم ، وذكرهم المجيد ، ومحاسنهم الزاكية !!

قال تعالى : (**يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**) .

وفي رفعة العالم وسمو قدره ، وما ينزله الله عليه من رحمات متوالية ، وسعادة غامرة ، نشعر بعظيم الاعتزاز وقوة الروح ، التي تجعله أكثر همة وطموحاً ، وصلابة وتأثيراً ، مما قد ينسيه آفات الطريق ، ومفاتن الرحلة ، التي توشك أن تنقض عليه أو تنشب فيه أظافرها ، فيقع في المطبّ ، وتحاصره الأمواج من كل مكان .

فأحببت في هذه الرسالة أنْ أتتبع المفاتن والمزالق التي يخشى على العلماء وحملة الفقه الشرعي من غلوائها ، إذا ما تنوفس فيها ، وانصرف القلب عن الله ، ونسي حقوق العلم ، وما ينبغي في شخصية العالم العزيزة ، والمتباعدة عن سفه وطمع ومفتنة ، كما قال سليمان عليه السلام : (أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ) .

وكما قال القاضي الجرجاني :

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن اهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

نسأل الله عز وجل أن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يقينا شر نفوسنا، ويلهمنا رشدنا ، وأن يثبتنا على دينه مؤمنين عاملين ، غير خزايا ولا مفتونين .

ندرك الحق ، ونعمل به ، ونبلغ الرسالة، لا تأخذنا في الله لومة لائم آمين .

ومن المفيد هنا أن يدرك الجميع أن مرتبة العلماء والانضمام لقافلة أهل الفقه والنظر ، لا يعني سلامتهم من الآفات ، بل إنهم عُرضة لكل آفة ، ومجتنى كل خطر ، إذا لم يهبوا ويستيقظوا لأنفسهم .

ويدركوا أن الفتن متكاثرة ، والبليات متوالية ولا ينجو إلا من عصمه الله ، وصان نفسه ، وأعدَّ لها الدروع الكافية ، والتروس المضادة ليسلم له علمه ، وتحيا نفسه ، ولا تطيش لخدعة مخادع ، أو تزيين سفيه ، لا هم له إلا اللعب بدين هذه الأمة ، وامتهان حملتها الشرعيين ، وتقزيم دعاتها الربانيين .

وقد قال أحمد رحمه الله لما قيل له كيف نجوت من البطش أيام الفتنة فقال : (أعز دين الله ، يعزك الله) .

ونحوها قال شريك بن عبد الله القاضي ، لما خوف ببعض المتنفذين ، **قال : (أعز أمر الله ، يعزك الله ...)**

فعزة العالم بعلمه ، وإدراكه مفاتن ما يُدعى إليه، من أعظم ما يقيه شر الأشرار ، وكيد المنافقين ، والله مع أوليائه ينصرهم ، ويثبتهم ويصون عرضهم وعلمهم .

محايل عسير

25 شعبان 1427هـ

(1) طلب الشهرة

لما كان العلم الشرعي من أرقى العبادات ، وأعلا المنازل في حسّ الناس ، أضحى أصحابه من المشاهير وطلابه من المعروفين ، الذين يهتم بهم الناس ، وتُطالع سيرهم ، ويُحتذى بشخوصهم وكلماتهم .

وهذا من رفعه الله لهم ، حيث جعل الأبصار تشخص فيهم ، والأنظار تتطلع إليهم (**يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**) .

لكن المشين هنا ، أن يعتز العالم بالشهرة المحصولة ، بل يوسعها كماً وكيفاً ، ويتلذذ بذكر الناس لها وبأدواره المختلفة في العمل الإسلامي ! وهذا مزلق خطير ، ومفتن وخيم .

لأن الشهرة، وإن غرّت ابتداءً فهي قاتلة ، لأنها طريق إلى نفق ضيق ، خال من النور والهدى والاستيعاب ، ومن آثارها السيئة :

1- **الاستلذاذ بها ، وتطلبها في كل** موقف ، حتى إذا ذكر شيء ، أو امتدح عمل معين ، ولم يُثن عليه ، تبرم وتألم .

فبعضهم مثلاً يريد أن يذكر بنعت : فضيلة الشيخ ، أو العلامة ، أو الدكتور الفاضل أو العلامة المحدث ، والمحقق الكبير ، وأشباهها من ألفاظ المدح والتبجيل ، و ليس حراماً قولها في حقها ! لكن التهمم بها وتطلبها ، والضجر ممن سكت عنها ، هذا هو الخطأ ونقطة الملامة في حاملها ؟

وكم من شخص لم يحمل من هذه الألقاب والشهادات شيئاً يذكر ، لكن يودع في قلبه علماً جمًّا ، ومعرفة

واسعة ، وثقافة لا حدَّ لها . ومن طلب هذه الألقاب وُكل إليها ، وحُرم أبجديات المعرفة ، وأدوات العلم العميق . والحوادث كاشفة ، والله المستعان.

2- **التعالي والعجب** ، ونسيان مواد تزكية النفس وما ينبغي لحملة العلم تجاه قلوبهم وعلومهم من التواضع وحسن السمت ودوام الخوف والخشية ، قال تعالى : (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) (فاطر:28)، وفي الحديث : (**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**).

3- **ضعف الإنتاج** ، حيث يركن العالم إلى الشهرة وأدبياتها ومستلزماتها ، فينسى العالم الأدوار الجادة ، والتفاعلات التي تريدها الأمة منه ، وهذه خيبة خاسرة !

4- **الانشغال المطبق ،** الذي يحرم صاحبه العمل ، وهو من أسباب ضعف الإنتاج والتأثير ، حيث يصبح للعلامة الكبير ، أصدقاء ومحبون من العيار الثقيل ، الذين يجالسهم ، ويلبي رغباتهم ، ويحضر موائدهم ، ولا يجد بداً عن ذلك ، مما يعني ضياع الأوقات ، وحصول القسوة والغفلة وحرمان لذاذة العلم والتدريس ، وقد قال أحمد لما عانى شيئاً من الشهرة ، غير التي وقعت لمن بعده (**ليتنا ما عرفنا الشهرة). لأن معرفتها ارتباط جاثم ، وضياع حاسم ، وكبت دائم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

5- **التعويل عليها في التحرك اليومي والدعوي** ، حيث يجعلها الشيخ سبباً لتمرير المشاريع والأعمال دون أن يكون ثمة مصداقية ، أو ممارسة ، أو تحرك جاداً ! وهذا يفقدها بريقها، ويؤذي صاحبها كما هو

معلوم لدى أصحابها والمفتونين بها عياذاً بالله من ذلك
.

(2) الطموح للمنصب

لا تخلو الحياة من مناصب شرعية ، ورُتب علمية نحو : القاضي ، والمفتي ، ورئيس لجنة الفتوى ، مدير الأوقاف والمساجد ، والمستشار الشرعي ، ورئيس مجمع البحوث الإسلامية . وأشباهها التي قد تختلف من دولة وأخرى !

المهم أن كل دولة إسلامية لديها من المراتب الشرعية ، ما تحب سدها بالأكفاء والمتميزين الذين تشرف بهم الأمة ، وتعتز بهم الدولة .

لكن الإشكال أن يتولد لدى حملة العلم الشرعي طموح زائد ، وفاضح بحب هذه المراكز السامية فلا يتعلم إلا لها ، ولا يرتقي في الشهادات الشرعية إلا بسببها ، وهذه طامة عظمى ، لأنها تعني وأد العلم وطمس نيته ، وذهاب بركته وصيرورته للدنيا الجامحة ، والأماني الجامحة ، التي هي في النهاية شهرة فارغة ، وضياع محتوم ، والله المستعان .

وقد تتأتى المناصب بعد الرسوخ في العلم ، بزعم سد الفراغ ، واستعمالها في مرضاة الله ! فمن وجد في نفسه أهلية لذلك ، ورشحه الأكفاء فلا بأس ، مع الخشية والمجاهدة وإن رأى فيها الافتتان ومطامع ذوي الأهواء فالتباعد آمن وأسلم .

والمناصب الدينية نوع من الولايات الشرعية المحدودة تحت والي عامة ، يحب فيها التقوى، ويراقب الله، وأن لا يسعى إليها إلا الأكفاء الأتقياء كما قال يوسف عليه السلام : (**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**) (يوسف :55) وأما من يطلبها وهو ناقص

الصفات ، فقد وقع في المحذور ، وجنى على نفسه **، وفي الحديث (إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة) .**

ولمخاطر الوظائف الدينية ، كرهها السلف الصالح ، وذموها والمنتمين إليها .

كتب الإمام ابن المبارك إلى إسماعيل إبراهيم بن علية المحدث الشهير لما بلغه ، أنه ولي الصدقات هذه الأبيات المفعمة بالنصح والمعاتبة :

يا جاعل العلم له بازياً — **يصطاد أموال المساكينِ**

احتلت للدنيا ولذاتها — **بحيلة تذهب بالدينِ**

فصرت مجنوناً بها بعدما — **كنت دواءً للمجانين**

أين رواياتك في سردها — **عن ابن عون وابن سيرين**

أين رواياتك فيما مضى — **في ترك أبواب السلاطين**

إنْ قلت أُكرهت — **زلَّ حمار الشيخ**

فما هكذا   في الطين

فبكى إسماعيل واستعفى من الوظيفة .

(3) ثناء الناس

النفوس مفطورة على حب المديح والثناء ، وهو نوع من التشجيع الحافز على العمل والإنتاج .

لكن ليس معنى ذلك أن لا يعمل العالم إلا لكي يمدحه الناس ، فيقولوا ، عالم متقن ، أو قارئ متمكن ، أو ذو علم واسع ، وأشباهها من العبارات الخطيرة على شخصية طالب العلم الشرعي .

ومن تعلم العلم والقرآن ، لا يتعلمه إلا ليصيب ثناء الناس ، ويقولوا (عالم وقارئ) فهو من الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم والعياذ بالله ، قال صلى الله عليه وسلم : (**إن أول**

الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل أستشهد ، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى

قتلت.قال: كذبت ولكن قاتلت ليقال هو جرئ، فقد قيل. ثم يأمر به فيسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القران ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت

فيك القران. فقال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال هوعالم فقد قيل وقرأت القران ليقال:هو قارئ فقد قيل. ثم أمر به فسحب على

وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال:ماعملت فيها؟فقال:ما تركت من سبيل

تحب ان ينفق فيها إلا انفقت فيها لك.قال:كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل.ثم امر به فسحب على وجهه حتى ألقي

في النار.

وفي لفظ: فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة."
اخرجه مسلم في صحيحه

والآثار المترتبة على من يطلب ثناء الناس ما يلي :

1- **الغرور المستحكِم ،** الذي يورث الكبر والتعالي ، وحب الذات ، وطلب الترفع على الناس في كل تحركاته وإجراءاته .

2- **امتزاج الرياء بأكثر أعماله** بسبب أنه لم يعد يعمل لذات العمل ، وإنما لأجل المدح والثناءات .

3- **فساد النيات** ، واستبدالها بالنيات المخولة بمحبة ، الظهور والمدائح المتوالية .

4- **قسوة القلب** حيث انعدام الموارد الزكية ، وابتعاد الحقائق الروحية بسبب الرياء المتعمد والمستديم نعوذ بالله من ذلك .

5- **حرمان الثواب** ، وذهاب الخيرات ، وهبوط العمل دنيا وأخرى ، كما قال تعالى: (**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**) . (الفرقان :23)

وأما العامل الذي يسعى ابتغاء لما عند الله ، ثم يمدحه الناس فليس ذلك من الرياء المذموم ، **وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : (تلك عاجل بشرى المؤمن)**.

(4) الظهور قبل النضوج

من مفاتن العلم التي تعتري الطالبين للعلم الشرعي ، هو محبة المشاركة في البلاغ والتعليم، قبل النضج والاكتمال .

وهذه آفة خطيرة ، وفتنة ضارة ، لأنها تؤذن بالإفلاس والحرمان ، والوقوع في المضايق والأخطاء فمثلاً ترى بعض الشغوفين بعلم الفقه ، ابتدأ يشرح متناً فقهياً ، ثم بدأت الأسئلة تنهال عليه كالسيل الدافق ، يخرج من كل مكان ، فوقف الشيخ واضطرب وتلعثم .. فهو حينئذ بين خيارين أحدهما مرّ :

الأول : أن يكمل ظهوره ، فيجيب كذباً وجهلاً وافتراء ، ويقع في الأغاليط ، والافتراءات العلمية .

الثاني : أن يعتذر ، فتقل قيمته عند الناس ، وربما انصدم بذلك التوقف ، فيتقطع درسه ويدع ما كان يعمل من الطلب والقراءة والبحث .

ولذا نحذر إخواننا التلاميذ من الاستعجال للظهور العلمي قبل النضج والاكتمال، ومشاورة الأشياخ وترشيح الفضلاء ، وقبلها استخارة الله تعالى فما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار .

وقد قال السلف قبلنا **: (من تصدر شيئاً قبل أوانه فقد عوقب بحرمانه) .**

وقالوا : (**من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه**) .

والهوان الذي يلقاه المتصدر قبل الأهلية هو محيط الأغاليط والميون التي ينغمس فيها بسبب اعتداءاته

وافتراءاته ، وإصراره على الكلام فيما لا يحس ولا يدرك .
وقد قال الله تعالى : (**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**) . (الاسراء:36)

وينقل عن مالك بن أنس رحمه الله قوله **: (كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلم منه)**
وفي ذلك من طول الانتظار ، والصبر المديد ما لا يخفى ، وأن الرسوخ والنضوج لا يتم إلا بالجد المتواصل ، والوقت الموسع ، وليس سنة أو سنتين!

أما ذرائع الظهور قبل النضوج ، فتبدو من خلال التالي :

1- **قراءة كتاب مشهور** كالمغني أو الفتح ، أو تعلم سنة أو سنتين كافية عند المستعجلين لإلقاء درس وتعليم الناس .

2- **الالتقاء بشيخ مرموق** ، ومدارسته ، قد يحسِّن لهؤلاء الظهور والمشاركة ، دون حسبان أو اكتمال .

3- **محبة العلم والولوع بالتبليغ** والأداء حسبة ، فيقع الطالب فيما لا يتوقع من الخزي العلمي ، والمهانة الطلبية .

4- **جمع الكتب الكثيرة** ، وسماع الأشرطة العلمية المختلفة تجعل أصحابها ، يحسون بتميز على الآخرين ، مما يسرعهم الهوى على المسارعة والإفادة دون تيقظ واصطبار .

5- **ومثله إتمام متن حفظاً** ، كمن يحفظ الصحيحين ، أو بلوغ المرام ، ويظن أنه بات أهلاً للتدريس ، مع أنه لا يزال جاهلاً بكثير من أحكامها ومسائلها، والمقصد أن التصدر الذي يوحي بالاستيعاب والمقدرة على الإفتاء ، وحل الإشكالات محظور لمن لم يتأهل ! وبالإمكان المشاركة الدعوية بسبل أخرى ، فمن حفظ الصحيحين ، يستطيع تحفيظ غيره من الشباب لا أن يفتي بهما ، وهو في أول الطلب .

والله الموفق ،،

(5) تشهّي الفتوى

الفتوى الشرعية توقيع عن الباري جل وعلا ، وقول عن شرعه المختار للبشرية ، فالمفتي كالمبلغ والناطق عن الله تعالى .

فإذا وقع ونطق بلا علم ، وتزيد في الكلام ، وخرج عن دائرة الالتزام ، ووقع في مواقع الغي والآثام ، التي تفوق الشرك جرماً وغشاً وخيانة .

قال تعالى : (**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**) . [الأعراف : 33] .

فذكر كبريات المناكر والعظائم مرتبة حسب موقعها وضخامتها ، وجعل القول عليه بغير علم أعلا من الشرك ، وفي هذا تنبيه على خطورة الإفتاء دون علم ودراية .

والمقصود هنا : أن الفتيا مطمع يسعى إليه بعض الطلاب ، فيحب أن يفتي ويفيد، ويوقع وينصح ويذكر ، ... ولكن قبل الاكتمال والاستعداد .

ولعل اشتهاءها ناتج من نتائج الظهور قبل النضوج ، فيذهب التلميذ يفتي قبل ضبط الفقه ، وإتقان الأصول ، والبراعة في القواعد ، وفهم الواقع ، واستحضار النصوص الدالة على المراد .. فيقع في شرَك الكذب ، والجهل والمزايدة الفارغة ، التي تذهب قدره ، وتكشف عمق استهانته بالشعائر الدينية .

قال تعالى : (**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**) [الحج : 32].

وعديم التقوى هو من يوقع بالأكاذيب ، ويفتي بالميون ، ويدلل بالأغاليط ، التي هي في النهاية ، جرائم علمية ، وشطحات فكرية ، وتقهقر إيماني وأدبي ... لا يصنعه إلا من قسا قلبه وتسلط عليه الشيطان .

(**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**)

[البقرة : 169]

والإفتاء منصب ديني ، تشتهيه الأنفس والأمة تعج بالمفتين ، لا سيما زمن الشعائر وساعات الأزمات ، وقد توظف بعض الدول مفتين مختصين ، وتجعله وظيفة دينية لضبط المسار ، وقفل الاجتهاد ، ومنع الإفتاءات ، ولذلك بحث آخر ليس هذا موضعه .

لكن المهم هنا أنه لغلبة الجهل وحسن الظن يُستفتى كل ملتح ، قصّر ثوبه ، وشام الصالحين ، ولو كان قليل البضاعة ، عديم المعرفة ، فيزين له الشيطان البدارَ للإجابة ، وعدم الاعتذار بالجهل .. وأن ذلك يحط من قدره ، وقد كان سلفنا الصالح يتدافعون الفتوى حتى تعود إلى أولهم ، كل يود لو أن أخاه كفاه مئونة الجواب ... وما ذاك إلا لخوف الزلل وخطورة الموقف !! **ولابن القيم رحمه الله كلام شديد في(اعلام الموقعين) يقول فيه:**(**وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟!" إلى أن قال: "فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يعد له عدته، وأن يتأهب له أهبته، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج**

من قول الحق والصدع به، فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب؛ فقال تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} سورة النساء(127).. وليعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقن أنه مسئول غدا، وموقوف بين يدي الله".(10/1)

وقال أبو حصين الأسدي: "إن أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر"

لذلك فإننا نذكر إخواننا حملة العلم بفداحة الخطب على كل من يوقع عن الله بغير علم واستبصار ، فالخوف، الخوف ترشدوا (**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ**) .

وجاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله (**إن من فقه الرجل إذا سُئل عن شيء لا يعلمه أن يقول : الله ورسوله أعلم**) **.**

وفي الكتاب العزيز (**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**) .(الإسراء:36)

(6) حب التصدر

شيء غير طلب المنصب، وإن كان هو نوعاً منه ، لكن التصدر هنا هو السبق إلى الحديث في المجامع ، واستعجال الحديث أمام الأفاضل والجلوس في أماكن الأكابر.

والمبادرة للمشاركة في كل ما يطرح ، ويرى أنه لابد له أن يتحدث ، وأن من واجب الناس عليه ، أن يقدموه ولا يؤخروه ، ويستفتوه ولا يتجاهلوه ، ويذكروه ، ولا يهملوه .

وهو داء خطير ، وفتنة قاتمة ، حيث يفسد الفائدة ، ويعكر الهدف ، ويوغل القلب ، ويجعل حامله طلاب مظاهر ، وهاوي مواقف ، وصاحب مقاصد ورغبات!

إن العلم الزكي هو الذي سيرفع صاحبه ويعلي من شأنه في قلوب الناس قبل مجالسهم وأحاديثهم .. لذا عليه أن يتواضع ، ويتباعد عن أماكن الجناح والآثام ، التي تُركيه الغرور والإعجاب بالنفس ، وقد قال تعالى : (**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى**)(النجم:32) وأيضاً فليحذر الحديث أمام شيوخه ، أو التقدم عليهم أو مسابقتهم أو مقارنتهم، وليجعل الناس يختارونه لصدقه وعلمه ، وليس لمحبته واستعجاله ، فإن من كان كذلك لامه الناس ، ورمقته الأعين ، واستخف به الجالسون ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

(7) استعجال التأليف

من مقاصد العلم ومنافعه ، أن يقيد العالم بعض الجوابات والدروس التي ألقاها ، أو طلبها الناس لينشرها ، وتبلغ الآفاق ، لكنّ ذلك لأهله الحاذقين ، علماً وفهماً وفكراً ، ويملكون القدرة اللغوية والإنشائية وخبرهم الناس على الجودة والبلوغ والفهامة .

وأما من عداهم فالأولى الصبر والانتظار ، ودوام التحصيل والاستذكار ، والانتفاع بمناهج المؤلفين من الأقادم والأواخر .

لكننا بتنا في عصر تباينت أحواله ، وقلَّ متقنوه ، وراجت كتبه على أي وجه كان ، فتكلم الجاهل ، وحدَّث البليد ، وأفتى المأجور ، وخاض الرويبضة ، وزبّب الأصاغر والأسافل ، واشتُريت الدنيا بعمل الآخرة ، والله المستعان .

وقد قال الأئمة (من صنف فقد استهدف) .

وقالوا : (من ألف فقد وضع عقله في طبق يعرضه على الناس) .

وهذا في حق الكملة المبدعين ، فما بالكم بالمقصرين من ذوي النقص والابتداء! كيف يحق لهم أن يدلفوا مائدة التأليف ، وهم لا يزالون قاصرين علمياً ، وفاحشين نحوياً وضيقين فكرياً ؟ إن هذا لشيء عجاب !

إنَّ التأليف إنما يمتطي صهوته من ملك أدواته، وعرف مقاصده ، وصحت تجاربه ، وبات يأتيه الشعور الملح الصادق عن التأليف ، وأنه قد حانت ساعته ، ودنت نازلته ، فوجب الكشف والبيان ، وعصف الذهن واللسان ، حينئذ حق له التأليف والإفادة ، وقد يأتي الحفز عن طريق أشياخ أجلة كالبخاري مع شيخه اسحاق بن راهويه،

أو تلاميذ بررة جمعوا أمالي وتعليقات، وهذا كثير مع العلماء، وصلحت يوماً أن تكون كتاباً بعد المراجعة والتنقيح .

وما أجمل أن يعرض المؤلف عقله على من هو أنبه منه ، وأكثر رسوخاً، ليستبين الطريق ، وتختبر الحالة ، ويسود التقويم والتصحيح ، فيحصل الدفع أو الكف للانتظار إلى ساعة الفرج والفلاح ، والله من وراء القصد .

(8) تبجيل الناس

هو عمل آخر غير ثنائهم ومدحهم ، يعمدون فيه إلى إبراز العالم والداعية وحافظ القرآن ، وذكره بمحاسن الكلام ، وتقديمه في المجالس ، وتحيته أثناء لقائه ، وتوقيره ، والإصغاء له ، وطلب الحديث منه ، والاستماع لرأيه ، والإعجاب بصوته ولحظه ، وخدمته ، ورفع الحرج عنه ومناداته بأحسن الألقاب ، والاستشفاع به ، وطلبه وده وصحبته ، وعدم ردّ طلباته ومخاطباته وإنزاله أرفع المنازل ، وأطيب الوجاهات .

حيث بات العلم وجيها بلا نفوذ ، وإنما نفوذه أُكتسب عبر العلم والفقه والدروس المتوالية ، فإذا انضم إلى ذلك منصب رفيع ، وموقع متميز ، كبرت المحنة ، واشتعلت الفتنة، وغدا صاحبنا في ورطتين ، ورطة التبجيل والأخرى المنصب الجليل ، الذي قدمنا ذكر آثاره وأضراره .

وهذه مفاتن لا يسوغ احتمالها وتجاوز مخاطرها ، فإنها المزالق الطامسة ، والمقاتل المدمرة ، حيث يبدّد العالم علمه ، ويضيع قدره ويُذهب جلالته وهيبته ، والله المستعان .

(9) شارة العلم

أي زي العالم ومنظره البهيَّ ، والعجيب أنه من مزالق الإنسان إذا غلا فيه وأعجبته نفسه ، قال تعالى (**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ**) [القصص : 79] .

وقد حكى نبينا صلى الله عليه وسلم (**أن رجلاً من السابقين خرج في حلة وهو معجب بنفسه ، فخسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**) .. أخرجه البخاري .

وهذا الرجل هو قارون عند الجماهير . والمهم هنا أن لا يغالي المرء في شارته وزيّه ، وأن يحسنها لله تعالى ، حيث يعظم دينه ، ويظهر نعمة الله عليه (**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**) [الأعراف : 31] .

وقد جرت عادة المسلمين أن يكون لأهل العلم زيّ خاص كالعمائم أو الطيالسة ، أو العباءات والمشالح كما في هذا العصر .

والمشكل هنا أن بعض حملة العلم استحلى مشلحه في كل حين وساعة ، وجعله أداة للظهور والتصدير والمخادعة ، وكأنه يقول : افسحوا الطريق، ودعوا الحديث ، ويسروا الأمور، واعلموا مَن جاءكم وقصدكم !!!

وليس هذا اتهاماً أو تعميماً ، لكن بان وظهر في أصناف من حملة العلم والرئاسات الدينية ، فحسن التنبيه إليه ، وجعله مفتناً خطيراً ، يؤدي بصاحبه ، ويجعله مظهرياً خائباً ، لا هم له إلا الزي المكشوف والشارة الملفوفة ، وقد يكون محدود العلم، قليل الإدراك ، قد احتوته الدنيا بكل صنوفها ومزاهرها !

وفي الحديث في الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم : (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور) .. أي ذوزور، وكأنه مغتصب للعلم وليس من أهله.

نعم إن الحسن في المظهر لأهل العلم مطلوب وندب إليه الشرع ، لكن أن يتحول إلى غاية، ويسوء فيه المقصد ، فذاك الشنار ومنتهى القبح والحماقة ، لأنه انقلاب على المخبر ، واستهانة بجمال العلم ، وغوص في دهاليز من الميون والتفاهات والمخادعات !

وقد يجر ذلك المفتن إلى الاشتهار والانبهار ، فيصير بين مشايخه أو في بعض الميادين هو المتميز المكشوف بذلك، ويدخل في مذمة وتقبيح ، من قال فيه عليه الصلاة والسلام : (**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة**) ... أخرجه أبو داود بسند صحيح .

وثوب الشهرة ضابطه : جذب الانتباه والخروج عن إلف الناس بأي شكل من اللباس شريفاً كالمشالح ، أو وضيعاً كملابس الرثاثة والأطمار .. والله تعالى أعلم .

((10) الاستمالة السلطانية

يهم السلاطين والأمراء في كل زمان ، ضم العلماء والقضاة والفقهاء إلى حزبهم ومسارهم ، لينتفعوا بوجودهم ، ويوظفوهم لمقاصدهم ، ويكفوهم عما قد يخاف منه .

ولا زلنا نؤكد أن العالم الشرعي سلطان بعلمه وهيبته وأمره بالمعروف ، وصدعه بالحق، يستطيع بهذا المنهج الصحيح استمالة الناس إليه، وكسب محبتهم وإجلالهم.

لكن استمالة السلطان فتنة هدفها ما أسلفت أياً كان هدف السلطان ، وقد يرى بعض حملة العلم أن الحظوة عند السلطان تنفعه ولا تضره ، ويصلح بها مفاسد ، ويدعم بها حقوقاً ومشاريع ، وقد قال عثمان رضي الله عنه : (**إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**) ، وهذا كلام صحيح ، ولكن الفتنة لا تزال باقية ، والنفوس خداعة ! وكم من شخص زعم الإصلاح فإذا هو متورط لا يصلح ، ولم يستطع الخروج بسبب الاغترار وسلامة النية ، وضعف الشخصية ، وإذا احتف بذلك جوائز وهبات ومكافآت فقل على العلم السلام ، وضاعت هيبتك يا فقيه ! واضمحل خيرك يا مؤثر ومفيد ! **لقد قال من قبلنا : (الواقف بباب السلطان كالذباب على العذرة) .**

وما ذاك إلا للمخاطر العائدة في الأعم الأغلب ، **وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم: (من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن) .** إذن الفتنة واقعة إلا لمن عصمه الله تعالى ، وألقى الشرور، ونأى بنفسه عن المهانة والتبعية والمشاركة في المخالفة ، لأن مجالس الفارهين لا تخلو

من معاص وتجاوزات ، يحمل تبعاتها العالم الساكت ، والمشارك المقلد ، وقد قال تعالى عن أهل الإيمان (**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**) [القصص : 55] ، وقال عن عباد الرحمن (**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**) [الفرقان : 72] ، وقال في التحذير من المجالس المختلطة والحاوية للمناكر (**فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**) . [النساء : 140] .

فهذه نصوص في غاية السطوع والجلالة ، تؤكد خطورة المشاركة المحرمة، المذهبة بالسمت والوقار لكل مؤمن، فكيف بالعالم الفقيه ، والشيخ الجليل ؟!

(11) محبة الجماهيرية

وهي من إفرازات الشهرة وذيوع الصيت ، أن يشتهر العالم فإذا اشتهر لم يُلقِ في إلا في محيط ملبَّد بالزحام والفوضى ، حيث يجفل الناس إليه، وإلى محاضراته ، فكهين ومستمتعين ، فلا يطرب إلا بالجموع الغفيرة ، ولا ينطلق لسانه ، ويشع عقله إلا في جماعات متزاحمة ، تشخص إليه ، وتتطلع إلى موائد علمه ، وفوائد فكره .

ومحبة الجماهيرية نوع من نقصان النية ، وتشوش العقيدة في العلم ، حيث لولم يجتمع ذاك الجمع لم يُلقِ ولم يتحدث !!

من الأليم جداً أن يذهب الشيخ إلى درسه، فإذا وجد نفراً من الطلاب ، انصرف واعتذر ، وبعضهم إذا لم يصل الدرس لخمسين أو مائة، قطعه ، ولعنَ الهمم الضعيفة ، والعزائم الباردة !!

المؤمن يفرح باجتماع الناس عليه ، محبة في علمه ، واسترشاداً من فقهه وبراعته ، لكن لا يعني ذلك أن لا يلقي إلا في جمع ، وألا ينصح إلا في زحام وتسارع ، فإن ذلك من آفات العلم ونقائصه .

قد كان الأعلام قبلنا يكرهون الاجتماع الغفير لأنه ملفت ومخيف ، وصارف للأعين ، ومزلزل للنية ، وجالب للفتنة ، وكرهوا حتى مجرد الجلوس إلى السارية، لأنه مؤذن بلفت الأنظار ومعلم بالاجتماع والسؤال

قال بعض المصنفين في الآداب**: (على العالم الذكي أن يوطِّن نفسه أن يلقي العلم في أيّ جمع كان ، ولا يحدث نفسه بالاجتماع الباهي والحضور المكبر ، لأن ذلك مفتن خطير ، من شأنه أن يعكر النية ، ويذهب الأجر ، ويورث**

الحسرة والكآبة ويحول دون التأثير والرقة والانتفاع) .

ومن شأن محبة الجماهير، أن يشوشوا الفقه الدعوي للعالم ، ويدفعوا به إلى ما لا يحسن ، حيث علق مجده بهم، فهو مضطر إلى إجابة رغباتهم ، لئلا يخسرهم ، وفي ذلك تطويع العلم للجهلة والرعاع ، لأن الجماهير غالبيتهم من الطبقات الشعبية، والتي يسوقها التأثير ومحبة الخير ، دون العلم والفكر .

أضف إلى ما ذلك من تعلق الداعية بهم ، وعدم انشراحه لأي إسهام دعوي يخلو من التجمع والكثرة، ولقد تناسى أخلاق الأسلاف العلمية ، التي تبذل العلم الشرعي من أعماقها دون ثمن جماهيري أو مادي ، إلا الاحتساب ومحبة البلاغ .

مستحضرين قول الله تعالى : (**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ**) ، فالعالم مربٍ وداعية في كل الأحوال والظروف ، كثر الناس أو قلّوا ، حضروا أو غابوا ، ويعجبني قول من قال : **(لقد هيأت نفسي على الإلقاء، دون التفات إلى العدد راجياً التوفيق والإعانة**) .

وقد كان الأئمة قبلنا إلى عصور متأخرة، يعقدون المجالس لأفراد معدودين ، معتقدين النصح والتبليغ إلى أن اجتمع الناس لهم ، لما شهدوا صدقهم ، ومحبتهم الخير، فخافوا وأشفقوا ولم يتعاظموا أو يتعالوا .

قال تعالى (**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً**) [القصص : 83] .

ومن غوائل طلب الجماهيرية الزائفة :

1- تعكير صفو النية ، وسد منافذ القلب للانتفاع والانتشاء .
2- الانصياع لرغباتهم ، والانقياد لكل ما يطلبونه .
3- التراخي مع من سواهم ، وحكر النفع والبلاغ لهم فحسب .
4- الانتفاخ الفارغ ، واعتقاد البركة والزكاة وحصول العجب والاغترار .
5- ميله للشهرة المتلاشية عن قريب ، بسبب سوء المقصد وتشوش الهدف .
6- ضعف الخطاب الدعوي ، والنزول لمستوى الأميين حيث كثرتهم واستيعابهم .

(12) التفاخر العلمي

وله صور منها :

1- التقعر في الكلام ، وإظهار التفاصح ، والاستدلال بمكنونات المعرفة ، وغرائب المعلومات للإشارة والانتباه .

2- استعمال كلمات الراسخين ، والمحققين المنقطعين من نحو : قلت – لي – عندي ، حررته ، وكشفناه في كتابنا .

ومن لطائف ابن دقيق العيد رحمه الله قوله :

يقولون هذا عندنا غير جائز

ومن أنتم حتى يكون لكم عندُ؟!

3- التمدح بالكتب وشرائها ، وإدامة حملها للإعلان دون مصداقية واهتمام .

4- إبداء السمت الكاذب ، والسكينة المصطنعة ليسر الناظرين ، ويجذب المتلهفين .

5- المجادلة في العلم بحدة ، إلى رفع الصوت ، ومخاصمة المخالف ، وتسفيه رأيه وعقله .

وقد قال صلى الله عليه وسلم **: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)** ثم تلا (**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً**) وفي القرآن (**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**).

6- احتكار الحق والصواب ، وتمريره بعبارات الثناء الأحادية ، التي تقمع المحاورة، والإصغاء، والاستفادة من الآخرين .

7- تحقير المخالف وإبداء النظرة الدونية تجاهه لتصغير علمه ، وتهوين معلوماته وثقافته ، والله المستعان .

هذا ما تيسر تقييده من المفاتن والآفات العلمية، سائلا المولى الكريم أن يمن علينا برحمته،وأن يقينا غوائل الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا وإليه المصير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الفهرس

(5) تشهّي الفتوى
(6) حب التصدر
(7) استعجال التأليف
(8) تبجيل الناس
(9) شارة العلم
((10) الاستمالة السلطانية
(11) محبة الجماهيرية
(12) التفاخر العلمي